الخطاب الأميركيّ لـ «تحرير» الثقافة العربية

إغلاق العقل بالتشويه والتشهير والمال

. أحمد الخميسي* .

التشهير بالرموز بعد سقوط العراق

للدكتور عبد المحسن صالح كتابٌ صغيرٌ اسمُه **ما هو الموت**؟، يقصّ فيه تجربةً أجراها العلماءُ على كلبٍ لمعرفة ماهية الموت. يقول إنّهم فَصَلوا كلَّ أعضاء الكلب عن جسمه، واحتفظوا أثناءَ ذلك فقط برأسه حيًّا منزوعًا من البدن. ولكنّهم حين قاموا عَبْرَ الأنابيب بضخّ المحاليل والدماء إلى الرأس، فَتَحَ الكلبُ عينيْه وتعرّف إلى صوتِ صاحبه وأخذ يَلْعق يديْه!

الموت، إذن، هو موتُ العقل الذي يَصُون الوعيَ والذكريات والإرادة. والحال أنّ الولايات المتحدة الأميركية قد تمكّنتْ من تمزيق الأرض العربية بقنابلها العنقودية وصواريخها، وبَسطتْ هيمنتَها السياسيةَ والاقتصاديةَ في بلدان كثيرة دون طلقة رصاص، لكنّ الحياةَ لم تفارق «العقلَ» العربيّ الذي مازال قادرًا على التعرّف إلى صوت بلاده. وفي سبيل «تحرير» الثقافة العربية على طريقة «تحرير العراق،» تكثّف أميركا هجومَها بخطابٍ فكريّ دعائيّ، وبرنامج متكاملٍ يَنْشط على مستوييْن متضافريْن سياسيًّا وثقافيًّا؛ وهدفُها في ذلك تدميرُ مخزون العداء الشعبيّ للسياسة الأميركية، وإغلاقُ عينيْ ذلك العقل الذي مازال يرى أنّ هناك «أشياء لا يُمْكن أن تُشترى.»

في هذا الإطار كثّفتْ أميركا هجماتِها لشغْل الأنظار عن واقع احتلال العراق بمناظر وأحاديث أخرى. وأَطْلق الرئيس جورج دبليو بوش وكُتّابُه ومؤلّفوه حكاياتٍ لا تنتهي أقربَ إلى قصص **ألف ليلة وليلة**؛ ومنها: حكايةُ السرداب السرّيّ الذي فرّ عَبْره صدّام حسين، وحكايةُ صناديق الذهب والثروة التي يجدها البعضُ بالمصادفة السعيدة، وخيانةُ الوزير جعفر في قصر هارون الرشيد، وحكاياتٌ عن الأسرى الذين يَظْهرون بغتةً على سطح الأرض بعد ثلاثين عامًا كاملةً من ظلم السلطان الجائر. حكاياتٌ لا تَنْفد بؤرتُها، كلُّها جرت في الماضي، وتَهْدف إلى مجرّد شُغْلِ الأبصار لا للإفادة من دروس الطغيان السابق؛ ذلك لأنّ تلك الإفادة لا بدّ أن تعني ضمنًا أن نتعلّم كيف نكافح الطغيانَ الاستعماريَّ **الجديد**.

وإلى جانب ذلك كلّه، كان لا بدّ من قصف الأقلام والمنابر التي وقفتْ ضدّ العدوان الأميركيّ على العراق:

- بتشويهِ سمعتِها الأخلاقية، كما حَدَثَ مع صحفيّ مصريّ كبير في جريدة **صوت الأمة**؛
- أو بقرْص أذن الكتّاب الوطنيين باعتقالهم فترةً محدودةً، كما حَدَث مع مصطفى بكري صاحبِ جريدة **الأسبوع**؛
- أو بإغلاق المنبر ذاته، كما تمّ مع جريدة **الصدى**؛
- أو بإلصاق تهمة إقامة علاقات خاصة بالنظام العراقيّ، كما جرى مع النجم اللامع عادل إمام والممثّلِ القدير محمد صبحي؛
- أو بترويع البعض الآخر، كما جرى مع الروائيّ المعروف جمال الغيطاني بادّعاء كتابته روايةً لصدّام حسين لكي لا يستمرّ الغيطاني على موقفه الشجاع من العدوان الأميركيّ في صحيفة **أخبار الأدب** التي يترأس تحريرَها.

أسماء كثيرة على المستوى المصريّ والعربيّ تردّدتْ في حملة التشهير الأميركيّ، لم يَسْبق لأحد أن تناولها بتلك الاتّهامات. ولكنّ سقوطَ بغداد هو الذي أغرى الكثيرين بالتهجُّم والتشهير، وأصبح المطلوبُ من كلّ الذين ناهضوا العدوانَ الإجراميَّ أن يعتذروا أو يكفّوا أو يتراجعوا ويؤْثروا السلامة. بل إنّ الاعتذار عن المقاومة بات مطلوبًا من دولٍ أيضًا، الأمرُ الذي اضطرَّ رئيسَ الوزراء الفرنسيّ نفسَه إلى التصريح بأنّه «ليس على فرنسا أن تقدِّم اعتذارًا عن موقفها حيال الأزمة العراقية!»

الخطاب الثقافيّ الأميركي: الديموقراطية أم الاحتلال؟

إلاّ أنّ شُغْلَ الأنظار بحكايات الماضي عن واقع احتلال العراق، والهجومَ السافر على

* - صحفي وقصّاص ومترجم مصريّ. حاصل على الدكتوراه في الأدب المقارن من جامعة موسكو. وهو مراسل الآداب في مصر منذ بداية ٢٠٠٢.

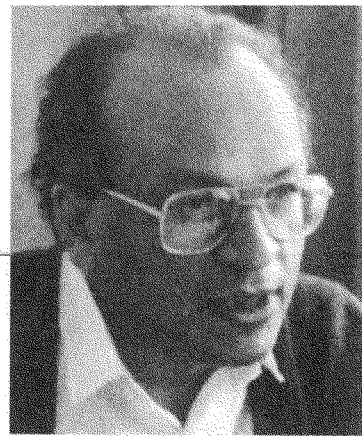

كان لا بدّ من قصف الأقلام والمنابر التي وقفت ضدّ العدوان الأميركيّ. فاعتُقل مصطفى بكري، واتُّهم عادل إمام بإقامة علاقات خاصة مع النظام العراقيّ، وادّعي أنّ جمال الغيطاني كتب رواية لصدّام

رموز مقاومته ثقافيًا، ليسا إلاّ عمليةً صغيرةً لـ «تنظيف» أرض المعركة تمهيدًا لما هو أكبرُ وأخطرُ، وأعني: البرنامجَ الأميركيَّ لـ «تحرير» الثقافة العربية. وهو برنامج تَرْصد له الأجهزةُ الأميركيةُ ملايينَ الدولارات علنًا، وعنه يصرّح كولن باول وزيرُ الخارجية الأميركية بالقول: «إنّه برنامجُ إشاعة الديموقراطية بخمسة وعشرين مليون دولار.» هذا البرنامج وهذه الأموال تُنشئ معها جماعاتٍ ومنظماتٍ لا تنتهي لخلق وترويج «خطاب ثقافيّ» ينطلق من الديموقراطية (وفق المفهوم الرسميّ الأميركيّ تحديدًا) ليُحلِّها محلّ التحرّر الوطنيّ والقوميّ. والديموقراطية هنا تبدو مطلبًا في حدّ ذاتها، منفصلاً عن مستلزمات التحرّر الاجتماعيّ والاقتصاديّ والسياسيّ والوطنيّ؛ وينحصر في الليبرالية البرلمانية، وحرية الصحافة، والتعدُّدية الحزبية، والحقّ الانتخابيّ، وحرياتِ الأفراد. إنّها ذلك النمطُ من الديموقراطية الذي يَنْثرونه على النخبة من مثقفي البلدان المحتلة وشبهِ المستعمَرة، لكي تشكّل فئةً خاصةً داخل بلادها ذاتَ امتيازاتٍ منفصلة عن همومها الرئيسية.

إنّ أحدًا منّا لا يشكّك في أهمية حرية الصحافة وحقوقِ الإنسان والتعدُّدية الحزبية، لكنّ اعتراضنا هو على اتّجاه تلك العملية ووظيفتِها وأهدافِها التي نرى أنّها يجب أن تتّسق مع المطلب العامّ للتحرّر. فهل ثمة ديموقراطية في ظلّ الاحتلال؟ أليس الاحتلال أعنفَ انتهاكٍ للديموقراطية؟ وإذا كنّا نريد حقًّا انتزاعَ الديموقراطية فلِمَ لا نواجهُ أفظعَ أشكال قهر الديموقراطية، أي الاستعمار؟ إنّ الباحثين عن الديموقراطية حقًّا عليهم أن يمدّوا بحثَهم هذا إلى البحث عن علاقة الديموقراطية بالتحرّر الوطنيّ ومواجهة الاحتلال، وأن يفتّشوا أيضًا عن المقصود بالديموقراطية: هل هي الأدواتُ والمفاهيمُ التي تساعد على تحرير الوطن، أم أنّها الأدواتُ والمؤسساتُ الهادفة إلى سحق الديموقراطية بمضامينها الاجتماعية والاقتصادية والقومية الحقيقية؟

ينطلق الخطابُ الثقافيّ الأميركيّ لـ «تحرير» الثقافة العربية من أنّ الديموقراطية في حدّ ذاتها مكسبٌ تاريخيٌّ ضخم، وأنّ واجب المثقفين كان ومازال هو التصدي للطغيان. إلاّ أنّ الأمر المدهش هنا أنّ «واجب» المثقفين هذا ينتفي تمامًا إذا كان الطغيانُ مجسَّدًا في أنظمةٍ صديقةٍ لأميركا، أو في شخص الدولة الأميركية ذاتها. ولهذا نَلْحظ أنّ الذين صَبُّوا نيرانَهم على إدانة الطابع الفاشيّ للنظام العراقيّ السابق غَضُّوا النظرَ تمامًا عن أنّ تلك الإدانة ـ إذا مُدَّتْ على استقامتها ـ كانت تستدعي إدانةَ السياسة الأميركية بالتهمة ذاتها، لأنّها قدّمت الدعمَ للنظام العراقيّ في كلّ خطوة ومكّنتْه من سحل المعارضة السياسية داخل بلاده لأكثر من ربع قرن. لكنّ دعاة الخطاب الثقافيّ الأميركيّ اكتفَوْا بمحاربة الطغيان في أوراقه العراقية فحسب، دون أن يتجرأوا على جذوره الأميركية التي ارتوتْ منها تلك الأوراقُ. الديموقراطية هنا منفصلة، ويجب أن لا تقترب أو تتقاطعَ مع قضية التحرُّر. وهذا ما دَفَعَ مجموعةً من المثقفين إلى القول في بيانٍ لهم صَدَر أثناء الاحتلال الأميركيّ للعراق: «إنّ انتزاع الديموقراطية مفتاحُ لمهمتنا التاريخية في التغيير الاجتماعيّ والحداثيّ...» من دون أن يشيروا بحرفٍ إلى مهانة الاحتلال الجاثم على صدر العراق! ومن هذا المنطلق ذاته كَتَبَ أحدُ كبار الأدباء العرب: «لقد علّمنا الطغيانُ أن نَحْتقل بهزيمة جيشنا!» هذه العبارة للكاتب الليبيّ أحمد إبراهيم الفقيه تُبلورُ النظرةَ التي تُفضّلَ طغيانَ الاحتلال الخارجيّ على الطغيان المحليّ، إلى درجة الاحتفال بسحق القوات الغازية للجيش العراقيّ، علمًا بأنّ تجزئة الطغيان أمر مستحيل: ذلك لأنّ مَنْ يَرْفضون الاستبدادَ القوميَّ لا بدّ لهم من بابٍ أَوْلى أن يرفضوا استبدادَ المستعمِرين والغزاة!

منظمات حقوق الإنسان بين الفرد والوطن

هذه النظرة التي تَعْزل الديموقراطيةَ عن الوطنية مَكّنتْ أيضًا الطابورَ الخامسَ من منظّمات حقوق الإنسان المموّلة من إحلال حقوق الإنسان الجزئية مكانَ حقوق الأوطان الكلية، بحيث غدا حقُّ الفرد

المنتَهَك في قسم الشرطة هو القضيةَ الرئيسيةَ لا حقوقُ المواطنين جميعًا المنتهكةُ بالاذلال، ولا الأساطيلُ الأميركية في مياه الخليج، ولا الهيمنةُ على أسواق المنطقة، ولا مرارةُ الوجود الإسرائيليّ. لقد جعلتْ بعض هذه المنظمات من أضرار الختان في الشرق العربيّ الموضوعَ الأولَ. وإذا كان الدفاعُ عن حقوق الأفراد والأقليات أمرًا مشروعًا وضروريًا، فلا بدّ لكي يكون ذلك الدفاعُ حقيقيًا أن يمتدّ بموقفه إلى نهايته الطبيعية: أيْ إلى الدفاع عن حقوق الوطن في مجمله في مواجهة الاستعمار. لكنّ تلك المنظمات تَفْصل عن عمدٍ بين «تحرُّر الفرد» ـ وهو مستحيل في وطنٍ مستعبَدٍ ـ وتحرير الوطن، وتَبْذل جهدَها كلّه من أجل تجزئة «مفهوم الحقوق» وعدمِ ربطه بالحقّ الوطنيّ العامّ.

مفاهيم أخرى في الخطاب الثقافيّ الأميركيّ

هذه التجزئة تمتدّ وفقًا للخطاب الثقافيّ الأميركيّ إلى مفهوم «الوطن.» فالوطن لم يعد يَعْرف الحدودَ (إلاّ إذا كان دولةً أوروبيةً ذاتَ شأنٍ يمكّنها من وقف تدفُّق المهاجرين إليها). ولم تعد ثمة حاجة إلى «الدولة» القومية (إلاّ إذا دار الحديثُ عن دولةٍ كفرنسا أو بريطانيا) بعد أن برزت العولمةُ باعتبارها قدرًا لا رادَّ له، ومن ثم أصبح من الضروريّ تقليصُ دور الدولة الوطنية لكي لا تضع الحواجزَ أمام قفزة رؤوس الأموال عبر الحدود. وقد نجح الخطابُ الثقافيّ الأميركيّ إلى حدّ كبير في خلْط ورقتَي التقدُّم التقنيّ وثورة المعلومات والاتصالات بقضية الجوهر الاقتصاديّ المستبدّ للعولمة، وأشاع أنّ العولمة بإنجازاتها التقنية لا بدّ أن تتضمَّنَ بداهةً القبولَ بشروطها الاقتصادية والسياسية الراهنة. فلا يتبقّى أمام الشعوب ـ والحالةُ هذه ـ سوى القبول بحلاوة الظاهرة ومرارتها معًا، أو رفض إنجازاتها وطابعها الاستغلاليّ معًا. وبعبارة أخرى، فإنّ علينا ـ إذا كنا حريصين على التقدّم العلميّ من وجهة النظر تلك ـ أن نَقْبل بالتخلُّف الاقتصاديّ والسياسيّ!

وإلى جانب فصل الديموقراطية عن الوطنية، وإحلالِ المفاهيم الجزئية للتحرّر مكان مفهوم الوطن، وإشاعةِ أنّ العولمة قدرُ الإنسان في هذا العصر، تَبْذل أقلامُ الهجوم الفكريّ الأميركيّ كلّ طاقتها لنشرِ ما تسميه «ثقافةَ السلام.» وهذه الثقافة تعني القبولَ بالواقع الناجم عن الغزو والاحتلالِ الأميركيّ ـ الإسرائيليّ للعراق وفلسطين، وتهديد سوريا ولبنان وليبيا والسودان وإيران وغيرها. وتقوم هذه الدعوة على افتراض يخالف كلَّ تاريخ الصراع العربيّ ـ الأميركيّ الإسرائيليّ، ومؤدّاه أنّنا نحن العربَ مُشْبعون بكلّ ميول العنف والعدوان، وبناءً عليه ينبغي تغييرُ كلّ برامج التعليم (كان ذلك في مقدّمة الأهداف الأميركية في العراق) في العالم العربيّ، وفي مصر بخاصة. وينبغي أيضًا إعادةُ تهذيبِنا، وتربيتِنا، بشطب كلّ الكلمات والفقرات التي تشير في برامج التعليم إلى إسرائيل وأميركا بصفتهما عدوَّيْن. وباختصار، لا بدّ من ثقافةِ سلامٍ تتولّى ترويضَ الشخصية العربية وقَتْلَ دوافع المقاومة فيها، كما سبق لأميركا أن فعلتْ ببرامج تعليم استهدفتْ ترويضَ الشخصية اليابانية والألمانية بعد الحرب العالمية الثانية بزعم وجودِ ميول عدوانيةٍ في ثقافتي الشعبيْن. ولا بدّ من ثقافةِ سلام لترسيخ المكاسب التي حصلتْ عليها إسرائيلُ بالحرب.

ثقافة السلام، وفقًا للخطاب الأميركيّ، تستدعي حتمًا تحقيرَ أيّ فكرة أو نزعة للمقاومة. ومن ثمّ ارتفعتْ معاولُ كتّاب الطابور الخامس لتُهيل الترابَ على كلّ صور المقاومة خلال الحرب العراقية ـ الأميركية. وبَذَلتْ صحفٌ وقنواتٌ عربية جهدًا خارقًا لتنفي أنّ الفلاح العراقيّ «منقاش» أسقط المروحيةَ الأميركية «أباتشي،» مؤكّدةً أنّه عَثَرَ عليها بالمصادفة. أمّا سجلُّ المقاومة العراقية اليومية للاحتلال فليس سوى «حوادث متفرّقة،» أو عمليات يقوم بها «أنصارُ صدّام» ـ وكأنّ دعاةَ الخطاب الأميركيّ يَسْتكثرون مقاومةَ الاحتلال على الشعب العراقيّ! وأما عمليات المقاومة الفلسطينية فيتمّ وصفُها بـ «الإرهاب.» ويدور الحديثُ بعد ذلك عن خطابٍ دينيٍّ «جديد» يَنْزع

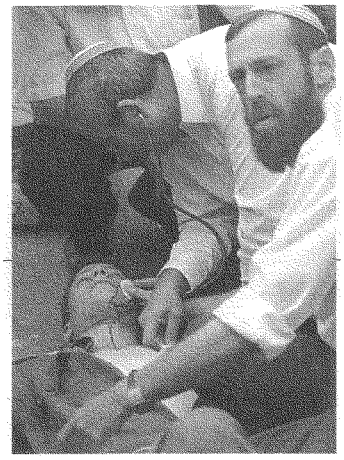
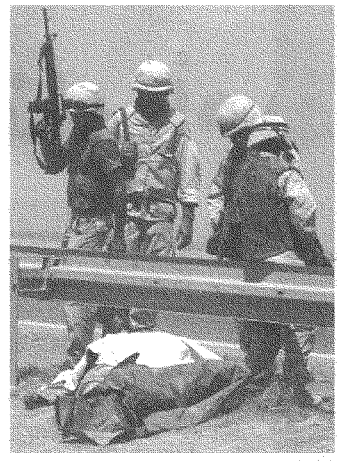

بذلتْ صحف وقنوات عربية جهدًا خارقًا لتنفي أنّ فلاّحًا عراقيًا أسقط مروحية أميركية، وتُنعت المقاومة العراقية بأنّها «حوادث متفرّقة،» والمقاومة الفلسطينية بالإرهاب

فتيلَ المقاومة من «جوهر» الدين الإسلاميّ، ويجرِّم الدفاعَ عن الوطن.

وإذا تَرَكْنا المسرحَ السياسيَّ الذي تَنْشط فوق منصّته فرقةُ كتّاب الردّ السريع، فسنجد أنّ الخطاب الثقافيّ الأميركيّ لم يُهْمل المسرحَ الأدبيَّ والفكريَّ وأدار على خشبته التهاويلَ الفكريةَ المجسَّمةَ في أرديةٍ فاخرة. فبدلاً من أن يُقال إنّ الصراع الحقيقيّ يدور بين شعوب المنطقة والهيمنة الاستعمارية، يقال لنا بأصواتِ الحكمة إنّ القصة تَكْمن في «صراع الحضارات،» وإنّنا نعاني من اعتلالٍ خلقيٍّ يجعلنا لا نَقْبل ذلك «الآخرَ.» ويتجاهل الجميعُ أنّ تاريخ حضاراتنا كلَّها هو تاريخُ **تفاعلٍ** مع الحضارات الأخرى. كما لا يحدِّد لنا أحدٌ بصراحة مَنْ هو «ذلك الآخر،» وما إذا كان هو الاسمَ الحَرَكيَّ لإسرائيل مثلاً!

وتَبْرز في الإطار نفسه قضيةُ «الهوية» التي سَقَطَ في غرامها مئاتُ العشّاق. ويتمّ تناولها باعتبارها قضيةً لا تجد إجابةً عنها إلاّ في الماضي الفرعونيّ أو الإسلاميّ أو الأوروبيّ الحديث، مع تفكيك الانتماء العربيّ ولاسيّما إذا كان يؤجِّج مشاعرَ التضامن في قضايا الصراع المشترك. المطلوب إذن فصلُ الهوية عن قضايا المستقبل، والنظرُ إليها كظاهرةٍ ذاتِ جوهرٍ ثابت، تعبِّر عن «وعي مسبّق.» وبذلك يتمّ تجاهلُ أنّ العثور على هويّتنا الحقيقية لا يكون إلاّ بتعيين وتجاوُزِ ما يواجهنا من تحدّيات الآن ومستقبلاً.

وفي المجال الأدبيّ يُنفق الأميركيون الكثيرَ على ترويج مفاهيم أدبية محدّدة. يقول د. مجدي يوسف: «الهدف الرئيسيّ الذي يَشْغل وسائلَ الإعلام ومعاهدَ التعليم ومختلفَ وسائل الاتصال الجماهيريّ المهيمنة في عالمنا، بل والجوائزَ الأدبيةَ والثقافيةَ، هو تأكيدُ استغراق الأفراد في عوالمهم الذاتية الخاصة.»[1] مرةً أخرى يتمّ عزلُ الفرد عن الآخرين، وتجزئةُ المجتمع. وفي هذا الإطار يُنظر إلى الحرية بمعزل عن أية حركة اجتماعية. وقد صاغ الروائيّ ماريو بارجاس يوسا شعارَ تلك الحرية الأميركية في روايته **دفاتر دون ريجو** قائلاً على لسان البطل وهو يخاطب عشيقتَه: «لا تصل الحريةُ في مجالها الواسع إلاّ في نطاق الفرد، موطنُها الدافئُ الذي تجسِّدينه حضرتُك ببظْرِكِ المحارب، وأجسِّده أنا بقضيبي!» ويقول: «كلُّ حركةٍ تسعى لتقديم مصالح جماعيةٍ لطبقةٍ أو سلالةٍ أو أمةٍ على سيادة الفرد تبدو لي مؤامرةً لفرض المزيد من القيود على الحرية البشرية!»[2] ولا يَلْمح ماريو بارجاس، ولا كلُّ الكتاب الذين يَمْضُون على ضوءِ فكرته، أنّ هناك على الأقلّ صلةً بين حرية الفرد وحرية الآخرين؛ فالحرية في رأيهم أمرٌ فرديّ، والثقافةُ حياديةٌ، وعصرُ القضايا الكبرى في الأدب قد انتهى، بينما تشظّت الشخصيةُ الأدبيةُ والزمنُ في الرواية والقصة.

إغلاق العقل

وعامةً فإنّ علينا، وفقًا لتلك المفاهيم، أن نَعْترف بعجز الإنسان عن إدراك قوانين الواقع، أو عجزِه عن تغييرِ ذلك الواقع إلى الأفضل. وتذهب ملايينُ الدولارات لإشاعة الخطاب السياسيّ والثقافيّ الأميركيّ في كلّ ركن. ولم يعد خافيًا ذلك الانتشارُ المروِّعُ في مصر لعمليات تمويل النشاط الثقافيّ من قِبل السفارات الأجنبية، ومختلفِ الجهات التي تصبّ أصولها في النهاية لدى الأجهزة الأميركية المعنية. وبذلك تتمّ أوسعُ عملية شراء لأكبر شريحة من المثقفين الذين يُنشئون «الخطابَ الثقافيَّ الأميركيّ» بهدف إغلاقِ عينَي «العقل» الذي يَصُون الوعيَ والإرادةَ ويَحْفظ صوتَ بلاده ورائحةَ حقولها.

القاهرة

١ ـ د. مجدي يوسف، **من التداخل إلى التفاعل الحضاريّ** (القاهرة: دار الهلال، ٢٠٠١).

٢ ـ ماريو بارجاس يوسا، **في مدح الخلاء**، ترجمة صالح علماني (دمشق: دار المدى، ١٩٩٩).